مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٩)، العدد (١)، ص ص ٣٣١-٣٧٠، (محرم ١٤٣٧هـ/ أكتوبر ٢٠١٥)

مراحل العلاقات العثمانية الفرنسية
٩٤٨ - ١٢١٧هـ / ١٥٣٥- ١٨٠٢م

د. عبدالرحمن بن علي السديس
قسم التاريخ -كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية
جامعة القصيم

ملخص البحث. تنوعت العلاقات العثمانية الفرنسية بين الود والتقارب أحياناً والتناقض والتوتر أحياناً أخرى منذ التوقيع على معاهدة الامتيازات بين السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م) وملك فرنسا فرانسوا الأول Franois.I (٩٠٠-٩٥٣هـ / ١٤٩٤-١٥٤٧م) وذلك عام ٩٤٨هـ /١٥٣٥م كأول معاهدة بين الدولة العثمانية ودولة أوروبية كبيرة منح من خلالها السلطان العثماني بعض الضمانات والتسهيلات لفرنسا، وكان للظروف المحيطة بالطرفين أثر في المد والجزر الذي حصل في العلاقات بين العثمانيين والفرنسيين، خاصة وقد تم تجديدها بين الطرفين أكثر من مرة. وسوف يتناول هذا البحث العلاقات بين الطرفين عبر ثلاثة محاور هي: أولاً: مرحلة النمو في العلاقات. ثانياً: مرحلة التوتر. ثالثاً: مرحلة عودة العلاقات.

المقدمة

تميزت العلاقات العثمانية الفرنسية بالود والتقارب والتناقض منذ التوقيع على معاهدة الامتيازات [١] بين السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦-٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م) وملك فرنسا فرانسوا الأول Franois.I (٩٠٠-٩٥٣هـ / ١٤٩٤-١٥٤٧م) وذلك عام ٩٤٨هـ /١٥٣٥م وهي أول معاهدة تعقد بين الدولة العثمانية ودولة أوروبية كبيرة[٢].

تلك المنافسة الشديدة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس ملك أسبانيا من جهة، والعداء المستحكم بين السلطان سليمان القانوني وشارل الخامس من جهة ثانية، وذلك بسبب محاكم التفتيش ضد مسلمي الأندلس وملاحقتهم على سواحل المغرب واحتلال بعض مدنه، كما كانت كذلك علاقات سيئة بالملك الفرنسي فرانسوا الأول بفعل أطماعة التوسعية في أوروبا، تلك الظروف كانت من بين عوامل التقارب العثماني الفرنسي الذي توج بالمعاهدة المذكورة.

لقد تجددت معاهدة الامتيازات تلك عدة مرات والتي منحت فرنسا مكاسب تجارية ودينية وقضائية، كانت خلالها العلاقات العثمانية

---

(١) الامتيازات Capitulations هي عبارة عن ضمانات وتسهيلات على شكل (اتفاقيات – معاهدات) منحها سلاطين الدولة العثمانية للدولة الأوروبية في تاريخ وظروف مختلفة، ومع مرور الوقت أخذ الأوربيون تلك الامتيازات ذريعة للتدخل في شئون الدولة العثمانية: مثل إعطاء فرنسا الحق لحماسة النصارى الكاثوليك بموجب معاهدة عام ١٥٣٥/٩٤٨م، وكذلك السماح لبريطانيا بفتح قنصلية لها في القدس ورعاية اليهود فيها وذلك بموجب معاهدة عام ١٨٨٩م، لمزيد من التفصيل أنظر:- مجلة المقتطف، الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المجلد ٤٥، جـ١، نوفمبر ١٩١٤م ص٤٦١ ؛ حسام الحفناوي، الحلف العثماني الفرنسي وظهور الامتيازات الأوروبية في المنطقة، القاهرة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٢) نظراً لحداثة الدولة العثمانية وقله خبرتها في الجانب التجاري وانشغالها بالجهاد والفتوحات، وكانت التجارة العالمية في تلك الفترة ترتكز في أيدي أمارات جنوب أوروبا والبنادقة، فقد كانت الدولة العثمانية منذ قيامها إلى وسيلة نستطيع عن طريقها من تحقيق أهدافها وإنعاش اقتصادها، فعقدت العديد من المعاهدات التجارية مع بعض الإمارات الأوروبية، سمحت لهم عن طريقها بمزاولة أعمال التجارة في أراضيها وقد عقدت أول معاهدة من هذا النوع عام ١٣٥٢م مع جنوده، لمزيد من التفصيل أنظر:

Halil, I., An Economic and Social Hostiory of the ottoman Empire, vol,I cambrifge,1994.

الفرنسية على أعلى درجة من التنسيق، واستمرت تلك العلاقات إلى مجيء الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت (**Napoleon Bonaparte**) (١٧٦٩-١٨٢١م) عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م وعلى الشام ١٢١٤هـ /١٧٩٩م، والتي أثارت حفيظة السلطان العثماني الذي تعاون مع البريطانيين والروس لدحر القوات الفرنسية واستعادة مصر، وبعد جلاء القوات الفرنسية عن مصر عادت العلاقات بين الدولتين إلى مجراها الطبيعي، وظلت كذلك رغم أنه يعتريها بعض التوتر أحياناً (٣) وتم تحديد عام ١٢١٧هـ /١٨٠٢ م نهاية الفترة الزمنية لهذا البحث على اعتبار أنها الحلقة الأخيرة من سلسلة المعاهدات العثمانية الفرنسية، حيث بدأت العلاقات بعدها غير مستقرة، ولم تكن في مستوى العلاقات قبل غزو الفرنسيين مصر.

أولاً: مرحلة النمو في العلاقات

العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية قديمة جداً، وكانت فرنسا بالنسبة للدولة العثمانية تمثل الصديق الذي يمكن الوثوق به، ولذا حظيت بامتيازات خاصة لم تحظ بها الدول الأوروبية الأخرى، وبدأ التقارب العثماني -الفرنسي في القرن العاشر الهجري، النصف الأول من القرن السادس عشر الميلاد، من خلال معاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية عام ٩٤٨هـ/١٥٣٥م والتي منحت فرنسا مميزات خاصة ووضعت اللبنات الأولى لتعاون سياسي اقتصادي وعسكري بين الدولتين وأعطت فرنسا مجالاً للتدخل في الولايات العثمانية بحجة حماية رعاياها(٤).

وكانت فرنسا تهدف من تحسين علاقاتها مع الدولة العثمانية إلى تحقيق عدة أهداف،منها دعم العثمانيين مملكة فرنسا، لتقويتها عسكرياً واقتصادياً، والحيلولة دون وقوعها تحت رحمة إمبراطورية الها بسبورج

---

(٣) مثل تشجيع الفرنسيين لمحمد علي باشا والي مصر من قبل العثمانيين على الانفصال بولاية مصر وذلك عام ١٨٣٢م، وكذلك بسبب الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠م، وتونس عام ١٨٨١م.

(٤) على حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤، ص٧١-٧٢.

(٥) التي تتربص بها وتنوي التهامها والحد من طموحات شارل الخامس ملك الهابسبورج وإضعاف قوته(٦) .

لقد أدى الاستنكاف الفرنسي من الانضواء تحت سلطة الهابسبورج إلى الدخول في صراعات سياسية وعسكرية كثيرة مع ملوكها، كانت أحداها معركة بافيا **Bavia** شمال إيطاليا عام ١٥٢٥/٩٣٨م والتي هزم فيها فرانسوا الأول ملك فرنسا ووقع أسيراً في قبضة شارل الخامس، فأرسل وهو في الأسر رسالة يستغيث فيها بالسلطان العثماني سليمان القانوني (٧) طالباً نصرته وفكاك أسره، وأرسلت أمه كذلك الوصية على العرش رسالة مماثلة إلى السلطان العثماني، ولكن الملك فرانسوا فك اسره نتيجة معاهدة مدريد عام ٩٣٢هـ /١٥٢٦م، والتي أملى عليه شارل الخامس فيها شروطاً صعبة ومهينة لفرنسا، لذا أرسل فرانسوا مبعوثاً عام ٩٤١هـ / ١٥٣٥م (٨)إلى السلطان سليمان القانوني طالباً عقد معاهدة تحالف بين الدولتين، سعياً منه إلى الاستفادة من الدولة العثمانية في الحد من طموحات شارل الخامس وإضعاف قوته، فقبل السلطان سليمان ذلك

---

(٥) نجحت اسرة الهابسبورج في ألمانيا عن طريق الصلات العائلية في تكوين حلف أوربي قوي في غرب أوروبا ووسطها، ظل لفترة طويلة بناو في الدول العثمانية المسيطرة على مساحات واسفر من شرق أوروبا، ويحاول هذا الحلف الوقوف أما توسعها نحو قلب أوروبا، وكان عصر امبراطور اسبانيا شارل الخامس الملقب يشارك كوينت، الذي حكم لفترة طويلة أقوى عصور أباطرة اسرة هايسبروج الألمانية الأصل، والتي حاز ملوكها لقب الأمبراطور الروماني المقدس، ورغم سيطرتها على مساحات كبيرة من وسط وغرب أوروبا، إلا أن فرنسا وبريطانيا خارجتين عن سلطة هذه الأسرة الحاكمة. انظر: مجموعة من الباحثين الأتراك، موسوعة الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، أشراف أكمل الدين إحسان أوغلى، بيتر شوجر، أوروبا العثمانية، ص ٨٦-٨٨.

(٦) L AVISSE,E.,Histoire, de la frence depuis ees orgines jusgua la revolution, tome. 5, paris, 1903, p.9

(٧) السلطان سليمان القانوني ولد في شعبان ٨٩٨هـ /١٤٩٥م، وتوفي عام ٩٤٧هـ/١٥٦٦م، تولى الحكم عام ٩٢٦هـ -١٥٢٠م وفي عهدة بلغت الدولة العثمانية الكمال القوة، ويعد مشروع قوانين وأنظمة الدولة العثمانية، لمزيد من التفصيل / أنظر: على حسون، مرجع ذكرة، ص ٥٢ وما بعدها.

(٨) حسام الحفناوي، مرجع سبق ذكره، ص١٧٦، لمزيد من التفاصيل عن هذه المعاهدة الامتيازات المحفوظة لفرنسا

وتم توقيع المعاهدة هي الأساس الذي بنى عليه الكثير من المعاهدات التي عقدت فيما بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بشكل عام (٩)، واصطلح على تسمية هذه المعاهدات مؤخراً بمعاهدة الامتيازات العثمانية الفرنسية، حيث أنه لأول مرة تفتح الدولة العثمانية المجال لدولة أوروبية ومنحتها تسهيلات اقتصادية ودينية.

ويجدر بالذكر أن الاتصالات العثمانية الفرنسية قد بدأت قبل عقد هذه المعاهدة بعدة سنوات، فقد ذكرت المصادر الفرنسية أن هناك اتصالات بين العثمانيين والفرنسيين بواسطة البندقية منذ عام ٩٣٤هـ/١٥٢٨م، عندما نقل قنصل البندقية في الدولة العثمانية رسالة من ملك فرنسا بشأن تحويل إحدى الكنائس إلى مسجد، فاعتذر السلطان العثماني ولكنه وعد ملك فرنسا بحماية الأماكن المقدسة لدى المسيحيين، كما وقع السلطان على وثيقة في العام نفسه تؤكد الحقوق الفرنسية السابقة لممارسة التجارة في مصر، وفي عام ٩٣٨هـ/١٥٣٢م استقبل السلطان العثماني رنكون **Rincon** أول مبعوث لملك فرنسي إلى الدولة العثمانية، وكان الهدف من الرحلة حمل السلطان على مهاجمة شارل الخامس(١٠). ومن هذا يتضح أن هناك اتصالات مسبقة مهدت لعقد المعاهدة المذكورة.

لقد أقرّت هذه المعاهدة السلم بين العثمانيين والفرنسيين وحرية ممارسة التجارة لرعايا الطرفين، ويساوي الفرنسيين بالعثمانيين عند دفع الضرائب التجارية، كما أعطت لفرنسا حق إنشاء قنصليات في مختلف الولايات العثمانية وحرية الفرنسيين في ممارسة دياناتهم داخل الأراضي العثمانية، وعدم محاكمة الفرنسيين في الأراضي العثمانية إلا بحضور مترجم(١١).

---

(٩) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق أحسان حقي، بيروت ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م، ص ٢٢٤ –٢٢٥.

(١٠) URSU, J., La Politigue Orientale de Francois ler (1515-1547). Imprimerie F Paillart, Paris, 1908. P-51.

BRUNEAU, A., Tradition et Politigue de la France au lavant, Paris, 1932, p.23-24.

(١١) Testa, L.B., Recueil des traites de la porte ottomane avee les puissances etrangeres etrangeres, paris, 1867,pp. 16-18.

وبموجب هذه العلاقة سمحت فرنسا في سنة ٩٥٠هـ/١٥٤٣م للأسطول العثماني باستخدام ميناء مدينة طولون **Tolon** الفرنسي لمهاجمة قوات إيطاليا وأسبانيا، وهذا ما أدى في النهاية بالأسبان إلى الإعتراف بتبعية المناطق المفتوحة في أوروبا إلى الدولة العثمانية، وقفل باب الصراع بين الدولة العثمانية وأسبانيا واعتراف دول أوروبا بذلك(١٢).

لقد استفادت فرنسا حكومة وشعباً من هذه المعاهدة، حيث فتحت للفرنسيين السبل أمام أبواب تجارة المشرق دون الخضوع للاحتكار البرتغالي بعد اكتشافها طريق رأس الرجاء الصالح، كما حصلت بموجبها على الحق الكامل في حماية رعايا الدول الأوروبية الأخرى في ممتلكات الدولة العثمانية، مما جعل لها مكانة مرموقة بين دول أوروبا، كما أحسنت في توظيف بنود المعاهدة وليس هناك أية فائدة تذكر للعثمانيين ورعاياهم، وأن الطرف الفرنسي قد استأثر بتحصيل الامتيازات المترتبة عليها، وقد وصف كثير من المؤرخين والباحثين تلك الامتيازات بأنها كانت البداية للاختراق السياسي والاقتصادي للعالم الإسلامي من قبل الغرب الأوربي، مما مهد فيما بعد لجحافل جيوشهم باحتلال المشرق العربي بحجة حماية المصالح الأوروبية في المنطقة، إلا أن هناك من يقول أن الدولة العثمانية في هذه المعاهدة أستطاعت إفشال مشروع تكوين اتحاد مسيحي كاثوليكي أوربي ضد الدولة العثمانية، فكان ضرب الأوربيين بعضهم ببعض من خلال استثمار النزاعات المذهبية والصراع على السلطة فيما بينهم حنكة سياسية أظهرها السلطان القانوني.

أخذت العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية تزداد قوة حتى أنه في سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م طلب ملك فرنسا هنري الثاني **Hanry2** الذي خلف أبيه فرانسو الأول من السلطات سليمان القانوني مساعدته في شن حملة على النمسا لمصلحة فرنسا، وأعقبها في نفس العام عقد معاهدة تعاون عسكرية تتكون من تسعة بنود من أهمها أن تتحمل فرنسا نفقات

(١٢) يلمازأ وزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، ج١، اسطنبول ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ص ٢٨٤، ٢٨٥.

الأسطول العثماني الذي سيتجه مع الأسطول الفرنسي لمحاربة الإيطاليين(١٣).

عززت فرنسا علاقاتها مع الدولة العثمانية سنة بعد أخرى، واستغلت الامتيازات لتزيد من تحقيق مطالبها، ففي عهد السلطان محمد الثالث ١٠٠٤-١٠١٢هـ/١٥٩٥-١٦٠٣م، سمحت الدولة العثمانية للأسطول الفرنسي بالعبور إلى البحر الأسود، وهذا ما شجع بريطانيا لتطلب الشيء نفسه، وفي سنة ١٠١٢هـ/١٦٠٣م عقدت فرنسا اتفاقاً مع الدولة العثمانية يتكون من أربع وثمانين مادة تحقق بموجبها حق فرنسا في حماية زوار الأماكن المقدسة في الولايات العثمانية، وحصانة السفن الفرنسية والرعايا الفرنسيين من الاعتداء والأسر(١٤)، وقد بلغ النفوذ الفرنسي ذروته في عهد السلطان عثمان الثاني (١٠٢٦-١٠٣١هـ/١٦١٧-١٦٢٢م) حيث منحت فرنسا من جديد الوصاية على حماية الأماكن المقدسة في فلسطين وحق ترميم كنيسة القيامة(١٥) إضافة إلى تعيين قنصل فرنسي دائم في القدس(١٦).

والواقع أن ذلك يعكس مدى الضعف العثماني أمام تنامي القوى الأوروبية وبخاصة النفوذ الفرنسي في بلاد الشام، والذي أرسى تقليداً لا

---

(١٣) المحامي مصدر سبق ذكره: ص٢٣٤-٢٣٥؛ تركية بنت حمد الجار الله، العلاقات الخارجية للدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٨ هـ/ ٢٠٠٨م، ص ١٥٦.

(١٤) إبراهيم بك حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية (التحفة الحليمية): بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص١١٠، عبدالقادر أوغلو، السلاطين العثمانيون، ترجمة محمد جان، الدار العثماني للنشر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٦١.

(١٥) (القبر المقدس) كنيسة في بيت المقدس، شيدت فوق قبر المسيح (على زعمهم) وعلى الرغم أنها في حوزة الأرثوذكس، إلا أن لجميع الطوائف النصرانية الأخرى نصيباً فيها. (الموسوعة العربية الميسرة، ص١٤٨٩).

(١٦) ليلى الصباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ص ١٥٤- ١٦٠.

يزال قائماً حتى الآن وهو تطلع نصارى الشام روحياً وثقافياً إلى فرنسا رغم عروبتهم.

الجدير بالذكر أن سياسة فرنسا تجاه الدولة العثمانية في الفترة التي أعقبت وفاة السلطان سليمان القانوني وحتى نهاية القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي وصفت بالتذبذب وعدم الوضوح، من جهة كانت تظهر الرغبة في الحفاظ على الصداقة مع العثمانيين، ومن جهة أخرى تستغل هذه العلاقة لتحقيق أهداف سياسية واقتصادية وبخاصة في فترات الضعف العثماني، فمثلاً وقوفها إلى جانب البنادقة خلال صراعهم مع العثمانيين، وأيضاً إرسالهم جيشاً للوقوف إلى جانب النمسا ضد العثمانيين أيضاً وذلك خلال الفترة ١٦٤٠-١٧٠٠م، وفي المقابل أقدمت الدولة العثمانية على منح بعض الدولة الأوروبية امتيازات كانت في وقت سابق حكراً على فرنسا(١٧). فأصبح الوضع الجديد لا يخدم المصالح السياسية والاقتصادية الفرنسية، لذا بدأت فرنسا إعادة ترتيب الأمور قبل فوات الأوان.

صرف اهتمام فرنسا بالشأن الأوربي اهتمامها بالعلاقة مع الدولة العثمانية، وذلك في منتصف القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي والذي استمر حتى نهاية القرن إلا أن شعور الفرنسيين بأهمية أن تكون لهم الأولوية في حماية الرعايا المسيحيين في الدولة العثمانية قبل غيرهم من الدول الأوروبية جعلهم يعيدون إحياء علاقتهم بالعثمانيين، ولذلك أبرمت فرنسا في عام ١١٥٣هـ / ١٧٣٩م مع الدولة العثمانية اتفاقاً من خمسة وعشرين مادة تم بموجبها تجديد كل الامتيازات السابقة، وأضيف إليها أن الدول الأخرى التي ليس لها سفراء معينون لدى الباب العالي يمارس رعاياها التجارة تحت حماية العلم الفرنسي ولهم نفس الامتيازات التي تُعطى للفرنسيين، مع إعفاء سفراء فرنسا وقناصلها من عوائد السمسرة والسماح للرعايا الفرنسيين بارتداء الملابس الشرقية

(١٧) Tongas, G. les relations de la france avec lempire ottoman durant la premere moitie du xv111 siesle, toulouse, 1942, p.40-43.

أثناء تجولهم في الأراضي العثمانية(١٨)، هذا يعد تنازلاً كبيراً من العثمانيين عن حقهم السيادي في أراضيهم لصالح الفرنسيين،ومع ضعف الدولة العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي أصبحت فرنسا تحتل المركز الأول بين الدول الأوروبية في ممارسة الضغط وقوة النفوذ على السلطان العثماني.

واقترن هذا النفوذ باسم فيلنيف Villeneuve سفير فرنسا في إسطنبول الذي أصبح مستشار السلطان الأمين وصاحب الكلمة النافذة في سياسة الدولة العثمانية، وبرز نفوذه بوضوح في حوادث البلقان بين العثمانيين وصربيا والنمسا، حيث استردت الدولة العثمانية كثيراً من أملاكها وعادت إليها مهابتها ومكانتها بين الدول الأوروبية، كما برز نفوذه في الوساطة بين الدولة العثمانية والسويد، وتم تجديد المعاهدة بين الطرفين سنة ١١٥٣هـ /١٧٤٠م. والتي ناقشت كل القضايا التي تخدم مصالح الفرنسيين في الأراضي العثمانية لإحتوائها على عدة مواد، لكن أبرز شيء فيها كونها أبدية، أي لا تنتهي صلاحيتها بوفاة السلطان أو الملك(١٩). وكانت مكافأته من قبل الدولة العثمانية أن قامت بتجديد الامتيازات التي كانت فرنسا قد حصلت عليها سابقاً، ومنذ ذلك الوقت أصبح النفوذ الفرنسي طاغياً في الولايات العثمانية، كما أصبحت الأماكن المقدسة في فلسطين خاصة لرجال الدين الفرنسيين(٢٠)، واستغلت فرنسا علاقتها مع الدولة العثمانية وتساهلها معها بأن أقامت علاقات حسنة مع التجار النصارى في مدينة غزة Gaza(٢١)، كما تبنت مساعدة الجالية المارونية في لبنان(٢٢)، ولا يزال النصارى المارونيين لهم حضورهم

(١٨) محمد عبداللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٢٩م، ط١، القاهرة، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ص٣١-٣٢.

(١٩) Henry, p. la fance devant le monde, Paris, 1945, p.37.

(٢٠) علي حسنون، مرجع سبق ذكره، ص١٤٣- ١٤٤؛ حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث: ط٢، القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٨م، ص٧١.

(٢١) ليلى الصباغ: مرجع سبق ذكره، ص٢٩٩.

(٢٢) طائفة نصرانية كاثوليكية ظهرت في وادي نهر العاصي، مؤسسها القديس مارون، نزحت إلى جبال لبنان

السياسي والاجتماعي في لبنان، بل يكادون يكونون الطائفة الأكثر تأثيراً من الناحيتين السياسية والاجتماعية في النسيج اللبناني، ولا يزالون يرتبطون بفرنسا بروابط وثيقة.

أصدر ملك فرنسا أوامره للسفير الفرنسي في إسطنبول وممثليه في سوريا بدعم الطائفتين المارونية والكاثوليكية في أي موقع من أملاك الدولة العثمانية (٢٣) لذا قام الموارنة، وكان أول إنتاج مطبعي لهم طباعة سفر في بلد الشام بفتح الكنائس للجاليات الأجنبية بغرض ممارسة طقوسهم بعيداً عن أعين السلطات العثمانية(٢٤).

والواقع أن هذه المرحلة تعد تاريخياً تمهيداً للمراحل التي تلتها، حيث كانت غنية بالامتيازات العثمانية للفرنسيين وغيرهم وبعثاتهم التنصيرية والثقافية والتي جاءت أو اندثرت في ركاب التجار، مما وسع مناطق نفوذ الدول الأوروبية في أراضي الدولة العثمانية، حسب منحت معاهدة عام ٩٤٨هـ /١٥٣٥م فرنسا حق حماية النصارى الكاثوليك، ثم تتابعت الدولة الأوروبية في الحصول على الامتيازات نفسها ومن أهمها بريطانيا وروسيا والنمسا الأمر الذي جعل الدولة العثمانية مخترقة من قبل الأوربيين.

كما استغلت فرنسا تلك العلاقة للتأثير على الدروز في لبنان حيث قام فخر الدين بن معن الثاني(٢٥) (٩٨٧ -١٠٤٥هـ/ ١٥٨٥-١٦٣٥م)

منذ تاريخ مبكر وأقامت فيها ثقافتها، ولغتها عربية، وإن لم تنفصل عن الكنيسة الغربية، ولها مطران يسمى بطريرك أنطاكية، وله شأن في حياة لبنان. (الموسوعة العربية الميسرة، ص١٧٦٦).

(٢٣) فيليب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٢، ص٤٨٣.

(٢٤) المرجع نفسه، ص ص ٢٣٢، ٣٢٤.

(٢٥) ولد في بعقلين، والده الأمير قرقاز بن فخر الدين. تسلم إمارة بعقلين، وأنشأ جيشاً، تعاقد مع أمراء تسكانيا ليقدموا له الخبراء في صب المدافع، ثم قصد إيطاليا بعد اضطراره إلى مغادرة لبنان، وعقد مع بعض أمرائها معاهدة لتقديم العون له لكنهم خذلوه. فعاد سراً إلى لبنان. واجتمع بالموارنة ثم عفا عنه السلطان العثماني وجعله والياً على صيد وصفد. ولكنه انتفض على الحكم العثماني، ففصل ونفى إلى أسطنبول

الذي اتسع نفوذه وسيطر على بقاع فسيحة من بلاد الشام - قام - بفتح خان في مدينة صيدا لاستقبال التجار الفرنسيين، وسمح لأعضاء البعثات التنصيرية بمباشرة نشاطهم الديني لتحويل المسلمين والدروز إلى المسيحية(٢٦).

وعندما بدأت الدولة العثمانية تدخل مرحلة الضعف والانهيار الأكثر مع نهاية القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلاد، بدأت الدول الأوروبية ومنها فرنسا بالتدخل في شئون الدولة وممارسة الضغط عليها واستغلال معاهدات الامتيازات كذريعة لعرض إملاءتها عليها، أضف إلى ذلك الهزائم العسكرية المتتالية التي لحقت بالدولة خلال حروبها مع روسيا والنمسا، كل ذلك أسهم في زيادة أطماع الدول الأوروبية في مزيد من الامتيازات فأصبحت الدولة العثمانية عاجزة عن التدخل لحفظ حقوق رعاياها المقيمين في الدولة أمام جشع الأجانب، مما أسهم في زيادة الفوضى في الولايات العثمانية وعلاقاتها بالسلطة المركزية في إسطنبول.

شهدت العلاقات العثمانية الفرنسية ازدهاراً في عهد السلطان سليم الثالث ١٢٠٣-١٢٢٢هـ / ١٧٨٩-١٨٠٧م، حيث يلاحظ عليه قبل أن يتولى العرش يلاحظ اهتمامه الشديد بفرنسا، فقد كان على اتصال ومتابعة للأحداث في داخل الدولة وخارجها. وكان السفراء الأجانب في إسطنبول يحاولون التأثير على مفاهيمه بصفته رجل الدولة المنتظر. وكان أقرب الشخصيات البارزة إليه في الحكومة العثمانية إسحاق بيه(٢٧) (٢٨).

حيث قتل (الموسوعة العربية المرجع السابق، ص١٢٧٧).

(٢٦) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج١، القاهرة، مطبعة الأنجلوا المصرية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣، ص١٠٥.

(٢٧) كان سفيراً لفرنسا في إستانبول في عهد السلطان مصطفى الثالث، ثم هاجر إلى فرنسا بعد محاولة غازي حسين باشا قتله بسبب تقاربه الشديد مع الروس، وقد أقام في فرنسا منذ عام ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٦م، وكان بينه وبين السلطان مصطفى صداقة قوية تعهده برعايته المادية والمعنوية طوال فترة إقامته في فرنسا، كذلك كان هو الوسيط المخلص لإجراء المراسلات بين السلطان وملك فرنسا لويس السادس عشر ووزيريه فرجين

وأبو بكر وهما الشخصيتان اللتان كانتا أقرب إلى التأثيرات الفرنسية، ووقع سليم وهو لا يزال أميراً تحت تأثير طبيبه الفرنسي الخاص لورينزو Lorenzo، والذي عرف باتجاهه السياسي المعادي للروس والنمساويين، وعن طريقه تمكن سليم الثالث من فهم التاريخ الأوربي(٢٩).

لقد كان سليم مغرماً بالتطورات الغربية وزاد تأثره بالفرنسيين ولذلك عندما تهيأت الفرصة لصديقه إسحاق بيه في التوجه إلى فرنسا بهدف التعليم وجدها فرصة ليرسل برفقته خطابين لكل من ملك فرنسا لويس السادس عشر (Louis XVI ١٧٥٤ – ١٧٩٣) ووزير الخارجية الفرنسي دي فرجين Devergenne، وقبل أن يغادر إسحاق بيه اسطنبول متوجهاً إلى فرنسا كتب الأمير سليم إليه التالي:

أعرض عليه (أي على ملك فرنسا) بجدية اهتماماتي وطريقة تفكيري، وأخبره إن روسيا هي عدونا الرئيس، وقد حققت انتصارات في عهد أبي وهذا ما أساء كثيراً إلينا، كما استولت على أراضينا بوسائل غير مشروعة. وذكره بأن فرنسا كانت حليفة لنا منذ زمن بعيد، وإذا عرف الفرنسيون ذلك فإنهم سيتفهمون أن الصداقة يجب أن تكون ماثلة في الأوقات الصعبة كما هو في هذه الأيام. والأمر يعود إلى فرنسا لتظهر لنا تعاونها ونحن نستعد الآن للحرب. روسيا تعتقد بأنها أفضل الدول، وهذا لا يليق بفرنسا ذات التاريخ المجيد لتسمح لروسيا بالغطرسة أكثر من هذا إنها مهمتك الآن(٣٠).

ومونموران، بهدف استقاء معلومات سياسية. أحمد مصطفى: في أصول التاريخ العثماني، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ١٧٣-١٧٤.

(٢٨) ناهد دسوقي، بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية، وأثر الغرب الأوروبي فيها ١٧٨٩-١٨٠٧م، الإسكندرية، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص١٠٣-١٠٤.

(٢٩) shaw S. History of the ottoman Empire and Modern Turky: vol. 1, (Empire of the Giza the rise decline of the ottoman empire 1280-1800, cambridge University, 1976,p.13.

(٣٠) Munir Salih, Louis XVI et Lesulton selim III "revwe d' Historie Diplomatique XXVI, 1912, P.516.

الجارالله، مرجع سبق ذكره، ص ١٦١- ١٦٢.

وكانت محتويات الخطابين المرسلين لملك فرنسا ووزير خارجيته أكثر تحديداً وتأثراً، حيث ذكر الأمير في رسالته أنه على الرغم من تحذير بروسيا وبريطانيا للدولة العثمانية بعدم التورط في حرب مع روسيا سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨م فإن فرنسا هي التي شجعتها للتورط في الحرب، ووعدتها بالمساعدات العسكرية والدبلوماسية ولكنها لم تف بذلك مما أدى إلى هزيمة الجيش العثماني، والآن فإنه يتعين على فرنسا مساعدة الدولة العثمانية في إعادة بناء قوتها العسكرية واستعادة أراضيهم من قياصرة الروس(٣١).

كما أشار إلى أن الدولة العثمانية تبحث بطرق سرية عن الوسائل التي بإمكانها أن تعيد الأمور إلى نصابها وتعيد الحقوق إلى أهله وإذا شاءت قدرة الله وعادت قوة الدولة كما كانت في عهد السلطان سليمان القانوني سنعترف لفرنسا بالجميل ونجدد الصداقة التي سبق وأن كانت فاعلة بين الدولتين(٣٢).

لقد سافر إسحاق بيه إلى فرنسا وقدم خطابي الأمير وعاش هناك حياة الأوربيين وشاهد منجزاتهم العسكرية وأخبر بها الأمير سليم في عدة تقارير، ولكن الملك لويس السادس عشر لم يكن رده لسليم موفقاً حيث أشار إلى أن فرنسا لم تشجع والده بالحرب ضد روسيا أو تعده بالمساعدة، وأن فرنسا ملزمة بأن تكون بعيدة عن موضوعات الخلاف بين الدولة العثمانية وجيرانها وعلى الأمير سليم أن لا يتأثر بذلك ومن ثم تسوء العلاقة بين فرنسا والدولة العثمانية(٣٣)،وفي تقديري أن فرنسا من خلال هذه الإجابة لا تريد أن تلتزم بشيء لشخص لم يستلم السلطة بعد، وليس بإمكانه المشاركة في صناعة القرارات، ويبدو أنها تريد الانتظار عن ما ستسفر به الأيام القادمة.

---

(٣١) المرجع نفسه، ص ١٦٢.

(٣٢) Munir, op-cit, P.526.

(٣٣) Shaw. op.cit. P.165 .

الجار الله، ص ١٦٣.

لقد تزامن مع تولي سليم الثالث عرش الدولة العثمانية ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م قيام الثورة الفرنسية على الحكم الإمبراطوري، وحرص الثوار الفرنسيون على خطب ود الدولة العثمانية للإعتراف بالثورة بعد أن واجهوا معارضة الدول الأوروبية، وقاموا بإرسال المبعوثين إلى العثمانيين، الذين أبدوا حذراً من الثورة، وآثروا التريث لاسيما بعد نصيحة البريطانيين لهم بعدم الاستعجال(٣٤). ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين اعتادوا على عدم الاهتمام بالتغيرات السياسية في الدول النصرانية أو المسيحية على اعتبار خصومتهم الدائمة مع المسلمين، ولذا اعتبروا الثورة الفرنسية شأن داخلي يخص النصارى ولا يتفق مع حياة المسلمين.

كان السلطان سليم الثالث على علاقة قوية مع ملك فرنسا وقد تأثر كثيراً لمقتله، إلا أنه رحب بالمبعوثين الفرنسيين وأحسن استقبالهم، وكان الهدف من إرسال هؤلاء وغيرهم هو الحفاظ على العلاقات الودية مع الدولة العثمانية وعدم الإصغاء للآخرين الذين يهدفون إلى إساءة العلاقة بين البلدين، إضافة إلى العمل على عقد معاهدة تحالف وصداقة بين فرنسا والدولة العثمانية(٣٥).

وأبدت فرنسا حسن نية تجاه الدولة العثمانية عندما قامت في عام ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٥م بإعادة تأسيس المطبعة الفرنسية في إسطنبول بهدف نشر أفكار الثورة الفرنسية وإشعار العثمانيين بأن فرنسا هي الأفضل بين دول أوروبا التي وقفت جنباً إلى جنب مع الدولة العثمانية. وقام مندوبها دي كورش في عام ١٢٠٧هـ (Decorches) أغسطس ١٧٩٣م بتأسيس النادي الجمهوري لأصدقاء الحرية والمساواة من أجل الدعاية للثورة الفرنسية وقام أحد مساعديه في نفس العام بتأسيس"النادي الجمهوري الوطني" لنفس الغرض، وقد بذل دي كورث في سبيل تحقيق مقاصده الكثير من الأموال وقدم الكثير من الهدايا لشخصيات عثمانية مختلفة ثم

---

(٣٤) F.O, 78/10/13.Report sent from the British Ambassador liston to secrtary of State in London in 25 Nov, 1794.

(٣٥) ناهد دسوقي: مرجع سبق ذكره.

ختم أعماله برفع العلم الفرنسي على ظهر سفينة فرنسية كانت راسية بجانب قصر الحكم وأقيم بهذه المناسبة احتفال كبير تخلله إطلاق المدافع وحفلة غذاء(٣٦)، وعلى الرغم من تلك الجهود والنشاط إلا أن العثمانيين لم يعترفوا بعد بالثورة الفرنسية.

لم ينجح دي كورش في مهمته في إقناع السلطان بأن تعلن الحكومة العثمانية اعترافها الرسمي بالثورة الفرنسية وأن تتخذ موقفاً محايداً من حرب فرنسا مع الدول الأوروبية، ولم يقنع السلطان أيضاً بأنه لا تعارض بين المذهب العقلاني الذي تنادى به الثورة الفرنسية ومبادئ الدين الإسلامي(٣٧).

وتشير التقارير المرسلة من ليستون (**Liston**) سفير بريطانيا إلى وزارة الخارجية بأن دي كورش المسؤول عن النادي الجمهوري الفرنسي كون صداقات في الأوساط الحكومية العثمانية وبخاصة بعض الوزراء، وينفق الكثير من المال لكسب المزيد من الصداقات، وأن علينا أن نتنبه إلى نشاط المذكور الذي قد يحد من التأثير البريطاني على البلاط العثماني(٣٨).

أسندت مهمة النادي الجمهوري إلى ريموند فرنيناك Reymond Verninac مبعوث فرنسي جديد بديلاً لدى كورش، وفور وصوله إلى إسطنبول قام بدعوة الأهلي في حفل عام بهدف شرح مبادئ الثورة الفرنسية وتوضيح بعض المفاهيم الخاطئة، وحظى باستقبال رسمي كبير حيث اصطف الجنود في الطريق إلى الساحة يتقدمهم فرنيناك مرتدياً الزي الرسمي الفرنسي ويحيط به مجموعة من وكلاء الإدارات الفرنسية وضباط المدفعية وخلفهم فرقة الموسيقى العسكرية الفرنسية. وبعد هذا الاستقبال الكبير أهدى فرنيناك إلى الصدر الأعظم مجموعة من الهدايا

---

(٣٦) Shaw.S.op.cit,p.195.

(٣٧) I bid, p -196

(٣٨) F.O.78/11/37, Report sent from the British Embasseders liston to Secrtary of state in london in 3 July, 1795.

الفاخرة[٣٩] ولعله بذلك أراد لفت الأنظار والتأثير على العثمانيين لدعم الثورة الفرنسية ونشر أفكارها في المجتمع العثماني. وإعلان الاعتراف بالجمهورية الفرنسية.

وفي عام ١٢٠٩هـ/ منتصف ١٧٩٥م التقى فريننـاك بالسلطان العثماني سليم الثالث والصدر الأعظم وتم استعراض تاريخ العلاقات العثمانية الفرنسية، والاعتراف بالجمهورية الفرنسية، وبعد هذا اللقاء أعلنت الدولة العثمانية اعترافها رسمياً بالجمهورية الفرنسية نظراً للتطورات التي ظهرت في أوروبا واعتراف بعض الدول الأوروبية بها[٤٠].

ولا شك أن أسلوب الفرنسيين في الدعاية لأنفسهم، واستخدام وسائل الإعلام، والتي تتمثل في ذلك الوقت بالصحافة للترويج لمبادئ الثورة الفرنسية في أوساط العثمانيين، ونجاحهم في التأثير على بعض فئات المجتمع العثماني، لاشك أن ذلك قد أغضب البريطانيين، ويتضح ذلك من رسالة بعث بها السفير البريطاني في أسطنبول لوزارة الخارجية يشرح فيها مدى التأثير الذي قام به الفرنسيون وتغلغلهم في أوساط المجتمع العثماني[٤١] وعلى الرغم من الضغوط البريطانية إلا أن الفرنسيين استمروا بالدعاية لأنفسهم في أوساط الدولة العثمانية، واستمر العثمانيون بالسماح لهم والإصغاء إليهم على المستويين الرسمي والشعبي حتى بدأت أطماع نابليون في أملاك الدولة العثمانية في الشرق العربي وبخاصة في مصر والشام.

ثانياً: مرحلة التوتر

كان من نتائج الامتيازات التي منحها العثمانيون للدول الأوروبية في أملاك الدولة العثمانية، أنها أعطت تلك الدول مجالاً للتعرف على

---

(٣٩) F.O.87/11/37. Report sent from the British Embassedor liston to secrtary of state in London in 2,Spt,1795.

(٤٠) Testa, L.B., Op.cit, p.208.

(٤١) F.O. 87/41/17. Report sent from the British Embasseders Spencer Smith to Secrtary of state in London in, 2 Octoper,1796.

خارطة الشرق العربي على اعتبار أنه ولايات عثمانية، ومفاصلة الاستراتيجية وثرواته، ونقاط قوته وضعفه، ومدى ولاءه للعثمانيين، وكانت مصر إحدى الولايات التي تعد محط أنظار الدول الاستعمارية الأوروبية وبخاصة فرنسا وبريطانيا في مصر أن مشروع احتلال مصر فكرة رددت في الأوساط الفرنسية مراراً وحتى قبل الثورة لأسباب عديدة، منها رغبة فرنسا في أن تجعل البحر المتوسط بحيرة فرنسية، تسيطر منه على شواطئها، وتطرد الأسطول الإنجليزي من الشرق الأدنى، ولما تحظى به مصر من موقع استراتيجي، وقد سبق لقنصل فرنسا في مصر قبل الثورة ميور Miro عام ١١٨٦هـ/١٧٨٠م، أن كتب تقريراً دعا فيه فرنسا لاحتلال مصر، وكذلك القنصل الفرنسي مانجالو Magallon الذي أرسل تقريراً إلى حكومته عام ١٢٠١هـ/١٧٩٥م بحثها على ضرورة السيطرة على مصر من أجل منافسة بريطانيا وعرقلة مشاريعها السياسية والتجارية في الهند(٤٢). والجدير بالذكر بأن ملاحقة بريطانيا والتضييق عليها في مستعمراتها، والسيطرة على معابر المياه الدولية هي استراتيجية نابليون بونابرت الرئيسة.

لذا رأت فرنسا أن عليها أن تستغل الظروف السياسية وتحتل مصر، فالدولة العثمانية مشغولة بحروبها مع روسيا، وسيطرتها على مصر، تعني إبعاد روسيا عن حوض البحر المتوسط(٤٣)، كما أنه سيسهم في تحسين أوضاع المصريين المعيشية وتحافظ في نفس الوقت على استمرار العلاقات الودية بينها وبين الدولة العثمانية(٤٤).

---

(٤٢) Vertray, M., Journal dun offcierde I armed Egypte, I armee Francaise en Egypte (1798-1801) Paris 1883, p.196-197;

السيد رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني ١٥١٧-١٨٨٢م، القاهرة: ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص١٠٨، الجارالله، مرجع سبق ذكره، ص١٦٨.

(٤٣) موسى موسى نصير: مصر في نهاية حكم علي بك الكبير إلى مجيء الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير: الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٢٥٧.

(٤٤) حراز: مرجع سبق ذكر، ص١١٢.

في حقيقة الأمر كان الفرنسيون على دراية بطبيعة المسلمين وأحوالهم في مصر، من خلال وسائلهم المتعددة منها ما قام به الرحالة الفرنسيون الذين أكثروا من رحلاتهم إلى المشرق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وكانوا على صلة بالعناصر القبطية واليهودية وبعض المماليك في مصر، ودرسوا كافة الجوانب السياسية والاقتصادية والفكرية والعسكرية بأدق التفاصيل، دبلوماسياً تجاه العثمانيين وسياسياً تجاه بريطانيا واقتصادياً باتجاه الهند، وبذلك أصبحت المسألة المصرية معدة ومهيأة وتقرر القيام بها رسمياً في مارس ١٢١٢هـ١٧٨٩م من قبل حكومة الإدارة(٤٥).

لقد تجسدت طموحات نابليون في تأسيس إمبراطورية فرنسية في الشرق تبدأ في مصر والشام، وصدرت تعليمات حكومة الإدارة إليه أن يحول مصر إلى هند أخرى مثله مثل بريطانيا، كما يتحقق لفرنسا السيطرة الكاملة على مياه البحر المتوسط، وأيضاً يقوم بحفر قناة تربط بين البحرين الأحمر والمتوسط وبذلك يوجد طريقاً بديلاً عن طريق رأس الرجاء الصالح وأقصر منه(٤٦). على أن نابليون وهو يحمل هذا المشروع لم يعط أي أهمية للعلاقات التاريخية بين فرنسا والعثمانيين، بل حث حكومته على نسف هذه العلاقة أمام المصالح الفرنسية.

وجد السلطان العثماني نفسه تحت ضغط كبير، فمن ناحية حثه البريطانيين والروس على ضرورة اتخاذ موقف متشدد من الفرنسيين وأطماعهم في أملاك الدولة العثمانية، لاسيما أنهم بدأوا بتجهيز أسطولهم في ميناء طولون على البحر المتوسط، وأن هدفهم في هذا الأسطول غزو مصر(٤٧).

---

(٤٥) Lyantey, p.le Drame orientale le France, Paris, 1923,p.88.

(٤٦) Lyantery, p., op-cit, p. 88;

عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٣٣؛ فشر.هـ. أ. ل: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠)، تعريب: أحمد نجيب هاشم. القاهرة ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م، ص٤٩.

(٤٧) Bernard Lewis:the Emergence of Modern Turky. Oxford. University Press,1966. P. 65.

على أن كبار المسئولين العثمانيين أيضاً عبروا للسلطان عن تذمرهم من سلوك الدبلوماسيين الفرنسيين وتأثيرها على الشعب العثماني، واقترحوا على السلطان بعدم الاستمرار في علاقاته مع فرنسا، كما أيدوا انضمامه إلى الحلفاء الأوروبيين وبخاصة روسيا وبريطانيا في مواجهة الخطر الفرنسي، وقد عبر السلطان عن ذلك في رسالة بعثها إلى السفير البريطاني يوضح حقيقة الموقف العثماني من السياسة الفرنسية، فذكر له أن الدولة العثمانية حافظت على علاقات متوازنة مع فرنسا أثناء الثورة وبعدها على الرغم من مقاطعة الدول الأوروبية لها، ولكن بكل أسف قام ممثلوا فرنسا في إسطنبول بتوزيع المنشورات وإثارة الرعايا ضد الدولة. وفي حال قامت فرنسا بغزو مصر فإن الدولة العثمانية لن تقف مكتوفة الأيدي والفتنة بين البلدين (فرنسا والدولة العثمانية) لن تسمح لفرنسا باحتلال أحد ولاياتها، كما ذكر السلطان أيضاً أن بريطانيا ستكون الدولة الأولى التي تتطلع الدولة العثمانية لبناء علاقات متميزة معها(٤٨)، وهذا يوضح بجلاء ضعف السلطان العثماني أمام تلك الأحداث، ومدى التأثير البريطاني في بلاطه.

وقد قامت فرنسا بفتح عدة قنوات دبلوماسية مع السلطان العثماني لإقناعه بأن هدف فرنسا هو معاقبة المماليك وحماية الدولة العثمانية، وأنه ليس في نيتها السيطرة على مصر، وأعلن تاليران **Taliran** رئيس حكومة الإدارة في فرنسا بأنه سيذهب إلى اسطنبول لإقناع السلطان العثماني، إلا أنه غير رأيه وقرر بعث السفير السابق ليسكواش **Laizkoach** لخبرته بالمفاوضات مع العثمانيين ولكن اعتذر ودعى حكومة الإدارة بالعدول عن قرارها، حيث ذكر أن هذا الإجراء سيؤدي حتماً إلى قطع العلاقات مع الدولة العثمانية، وسيجد أعداء فرنسا الفرصة مواتية للتقرب منها(٤٩).

ومهما يكن من أمر فقد مضت فرنسا في سياستها غير عابئة في علاقاتها مع العثمانيين حيث صدرت الأوامر في شهر ذي القعدة

---

(٤٨) Lbid, p.66.

(٤٩) De marciree, E., Une ambassada a Constatntinople, Paris, 1927; P.354.

١٢١٢هـ إبريل ١٧٩٨م إلى نابليون بونابرت بقيادة الجيش المسمى "جيش الشرق" والتوجه به نحو مصر، تحرك من مدينة طولون وهو مكون من سبعة وثلاثين ألف جندي ومائتين وثمانين ناقلة وعدد من العلماء والتجار والحرفيين، وعندما وصل إلى مشارف الاسكندرية، كتب إلى قائد الأسطول العثماني هناك قائلاً:: "لقد أقدم مماليك مصر على امتهان التجار الفرنسيين، وقد جئت لأنتقم منهم، غداً سأدخل الاسكندرية، لن أقوم بشيء يضركم فنحن وعظمة السلطان العثماني أصدقاء، عليكم بالانسحاب من الميناء أما إذا حاولتم التصدي لنا، فإننا سنقوم بعمل من شأنه إفساد العلاقة بيننا وبينكم(٥٠).

وتشير التقارير العثمانية، بأن الفرنسيين شنوا هجوماً على الإسكندرية بمأتين وسبعين سفينة وسفكوا دماء المسلمين واستشهد كثير من المدافعين(٥١) وكانت مقاومة الأهالي للغزو الفرنسي في الإسكندرية وغيرها من الموانئ المصرية عنيفة وكان المحاربون منهم حوالي مائة ألف رجل(٥٢). وتشير إحدى الوثائق إلى معاناة الجيش الفرنسي من خيالة عرب الصحراء، إلا أن نابليون تفاوض مع بعض زعمائهم واتفق معهم على أن يرد لهم بعد وصوله القاهرة كل الأراضي التابعة لهم، ولهم حق ممارسة حياتهم الطبيعية، ويجب عليهم أن لا يؤذوا الفرنسيين، وبالمقابل على الجنود الفرنسيين أن لا يقوموا بأي عمل من شأنه إيذاء السكان ونهب ممتلكاتهم وظلمهم(٥٣).

---

(٥٠) وثيقة رقم ٦٧٦٧ في أول محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ١٤٩/٢/١ رسالة من نابليون بونابرت إلى قائد الأسطول العثماني في الإسكندرية.

(٥١) وثيقة رقم ٦٧٣٥ في ٢٩ محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ١٥٤/٤/١ رسالة من إبراهيم بك إلى السلطان العثماني.

(٥٢) وثيقة رقم ٦٥٩١ في محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ١١/٤/٥ مقاومة الأهالي للغزو الفرنسي في الإسكندرية ورشيد ودمنهور.

(٥٣) وثيقة رقم ٦٧٦٨ في ٢٠ محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ١٤٩/٢/١ مراسلات نابليون التي بعث بها من الإسكندرية.

ويبدو أن نابليون قد أغرى زعماء القبائل العربية التي واجهته في مصر بالمال وعدم التعدي على أعراضهم وممتلكاتهم فضمن حيادهم.

ورغم المقاومة التي أبدها المصريون إلا أنهم لم يتمكنوا من وقف زحف الفرنسيين لكثرة أعداد الجيش الفرنسي وقوة تسليحه. ودافع سكان القاهرة عن مدينتهم واستماتوا دونها غير أن أسلحتهم لم تكن بمثل أسلحة الفرنسيين، وفي معركة إمبابة(٥٤) وحدها يذكر أن عدد القتلى حوالي ثلاثة آلاف، وبينما كان نابليون يحتفل بالنصر بعد دخوله القاهرة ويعمل على توطيد حكمه فيها وردته الأنباء بأن الأسطول البريطاني هاجم الأسطول الفرنسي في خليج أبي قير ودمره تدميراً كاملاً(٥٥)، وقد أصدر السلطان فرمان إلى الشعب والولايات العثمانية عبر فيه عن امتعاضه وأسفه على عدم قدرته على صد الكفار الفرنسيين.

ويظهر هذا الفرمان مدى استياء السلطان من فرنسا التي لم تلتزم بالمواثيق والعلاقات القديمة بين البلدين ولهذا لم يتردد في التوجه إلى إقامة تحالف مع بريطانيا وروسيا(٥٦)، والذي شجعه على ذلك موقف بريطانيا العسكري عندما قامت بتدمير الأسطول الفرنسي في أبي قير، حتى أن السلطان سليم الثالث أرسل إلى قائد الأسطول البريطاني نلسون Nelson -(٥٧) خطاب شكر عبر فيه عن إعجابه بشجاعته وبسالة جنوده(٥٨).

---

(٥٤) يسميها الفرنسيون موقعة الأهرام.

(٥٥) وثيقة رقم ٦٨٠٢، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم، ٢/٥/٥، رسالة من مصطفى باشا إلى السلطان العثماني، عبدالمنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، الطبعة الأولى، بيروت، ١٤٢٥-٢٠٠٤م، ص ٤١٠.

(٥٦) وثيقة رقم ٧٦٩١، في ٢٥ شعبان ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ٣٠٤/٢/١ رسالة من الصدر الأعظم إلى السلطان سليم الثالث.

(٥٧) ياتونلسن ولد سنة ١١٧٢هـ- ١٧٥٨م. دخل البحرية وعمره ١٢ سنة وامتاز بين أقرانه وتقدم بسرعة حتى عُين وكيل أميرال في سنة ١٢١٢هـ- ١٧٩٧م. انتصر على القوات الفرنسية في ترأفلجار أو الطرف الأغر وقتل في هذه المعركة سنة ١٢٢٠هـ-١٨٠٥م (محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية، ص١٨١/ جون

بعد موقعة أبي قير أعلنت الدولة العثمانية الحرب على فرنسا، إزداد وضع الفرنسيين في مصر حرجاً، حتى أدى هذا الإعلان إلى تفاقم المقاومة المصرية ضد الفرنسيين، كما أن إعلان السلطان العثماني الجهاد جاء تكذيباً لما كان يدعيه نابليون وحكومة الإدارة من أن هدفهم كان هو تحرير مصر من المماليك بتفويض من السلطان العثماني(٥٩).

على الرغم من مساعي نابليون وحكومته لإقناع السلطان العثماني، إلا أن العثمانيين بعد إعلانهم الحرب على فرنسا، دخلوا في مفاوضات جدية مع السفيرين الروسي والبريطاني بهدف التحالف ضد فرنسا، وهو تحالف دفاعي وقعت عليه الدولة العثمانية مع روسيا في أواخر عام ١٢١٣هـ/ديسمبر ١٧٩٨م، تقوم بموجبه روسيا بمد الدولة العثمانية بالسفن والأسلحة وكذلك الرجال إذا اقتضى الأمر، وفي المقابل تعهدت الدولة العثمانية بمنح روسيا الحق في أن تمر سفنها الحربية في مضيقي اليفورد والدردنيل مروراً حراً، على أن تكون مدة هذا التحالف ثماني سنوات(٦٠). كما انضمت بريطانيا إلى هذا التحالف بعد ذلك بشهر حيث وقعت معاهدة تحالف بين الدولة العثمانية وبريطانيا، بنفس بنود المعاهدة مع روسيا، إلا أن المادة العاشرة فيها نصت على أن تقوم بريطانيا رفقة الدولة العثمانية بعمليات مشتركة لضرب الفرنسيين في مصر وتخريب تجارتهم(٦١). وبعد توقيع هذا التحالف أصبحت حضوض الفرنسيين ضئيلة جداً للبقاء في مصر أو توسيع دائرة نفوذهم في المشرق.

حاول نابليون السيطرة على بلاد الشام عبر فلسطين، ولكنه فشل واندحرت قواته في حيفا وعكا ولم يستطع أن يتجاوز محيط فلسطين لذا

باتريك: القرون العثمانية قيام وسقوط الإمبراطورية، ص٤٨١).

(٥٨) الهاشمي، مرجع سبق ذكره، ص٤١٢.

(٥٩) محمد أسد الله صفا، نابليون بونابرت، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٠٩.

(٦٠) Dekoch, M., Hitoire Abregee des traites de paix entre les puissances de I Europe, depuis la paix de west phalie, paris, 1817,p. 241.

(٦١) I bid, P.244.

استقر نابليون في القاهرة(٦٢) وبعد فترة قرر العودة إلى فرنسا تاركاً خليفته كليبر **Kliper** باتخاذ ما يراه حول البقاء أو الجلاء عن مصر إذا دعت الحاجة، وعندما أصبح الجيش العثماني على مشارف مصر بقيادة يوسف باشا الصدر الأعظم فضل كليبر الدخول معه في مفاوضات، ووافق الصدر الأعظم على ذلك، ووقع الطرفان على الاتفاق في ٢٤ شعبان ١٢١٤هـ/١٤ يناير ١٨٠٠م، عُرف باسم"اتفاق العريش" ومن أبرز ما تضمنته مواد الاتفاق:

جلاء الفرنسيين عن مصر خلال ثلاثة أشهر، الفصل بين القوات العثمانية والفرنسية، وإطلاق سراح المسجونين دون النظر إلى جنسياتهم، وإرجاع الأموال والأملاك المسلوبة، وعدم الاعتداء على مؤخرة الجيش الفرنسي أثناء الجلاء، ومنع المرضى بالطاعون من النزول في المراكب الفرنسية خوفاً على الأصحاء(٦٣) وتم توقيع اتفاقية الجلاء في ١٦صفر ١٢١٦هـ/ ٢٧يونيو ١٨٠١م(٦٤).

---

(٦٢) المحامي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٤، الجدير بالذكر أن العثمانيين بمساعدة الإنجليز والروس عرقلوا تقدم الجيش الفرنسي في فلسطين والشام، وعندما علم نابليون بأن العثمانيين يحشدون قواتهم مع الإنجليز والروس بمدينة دمشق وجزيرة رودس فضل الانسحاب المحامي، مصدر سبق ذكره ٣٧٥.

(٦٣) علي حسون، مرجع سبق ذكره، ص١٥٤.

(٦٤) وثيقة رقم ٥٧٥٢، في عام ١٢١٦، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، الترقيم ٦٠٠٩/١، رسالة من سفير الدولة العثمانية في باريس إلى السلطان العثماني. محمد فريد بك: المحامي، مصدر سبق ذكره، ص١٨٤، الجدير بالذكر بأن الأمور لم تنتهي عند هذا الحد، فما بين اتفاق العريش واتفاقية الجلاء سنة وأربعة أشهر تقريباً، حدثت فيها عدة مواجهات بين العثمانيين والفرنسيين من جهة في سيناء وفلسطين وبين العثمانيين والبريطانيين من جهة والفرنسيين من جهة أخرى، وعندما انتصر التحالف العثماني الإنجليزي مع الفرنسيين في موقعة أبي قير الثالثة في ٢١ مارس ١٨٠١م، وتم حصارهم في الإسكندرية إضافة إلى قدوم جيش عثماني بري إلى القاهرة، مما اضطرهم إلى التوقيع على اتفاقية الجلاء المذكورة.

للمزيد من التفصيل انظر:

Driault, E., op-cit, p. 184.

انتهت الحملة الفرنسية على مصر، ولكن النزاع بين الدول الأوروبية فيما عرف بالمسألة الشرقية(٦٥) قد بدأ يشتدّ، فروسيا لم تساعد الدولة العثمانية من أجل المساعدة فقط، وإنما خوفاً من توغل فرنسا في البحر الأسود، ورغبتها في إحكام الرقابة الروسية على الجزر الأيونية(٦٦). حتى أنها وقعت مع الدولة العثمانية عام ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م اتفاقية(٦٧) جعلت هذه الجزر مستقلة ذاتياً تحت السيادة العثمانية مع وجود قوات مشتركة عثمانية وروسية.وأيضاً بريطانيا خافت على مصالحها الخاصة فوقفت مع الدولة العثمانية خوفاً من تأثير فرنسا على مناطق نفوذها في الهند، ولذا فبعد انسحاب الفرنسيين من مصر حاولت بريطانيا مساعدة المماليك في مصر للتمرد على العثمانيين لكي تضمن مصالحها، ولكن استيلاء محمد علي على السلطة واعترافه بالسيادة العثمانية في عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م حسم الأمر لصالح الدولة العثمانية(٦٨).

---

(٦٥) المسألة الشرقية مصطلح يصف العلاقة بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية المركزية من وجهة نظر أوروبية في مرحلتين من مراحل الدولة العثمانية، مرحلة القوة ومرحلة الضعف، حيث كانت تعتني في فترة القوة كيف نحمي الدول الأوروبية نفسها من الخطر العثماني حيث وصلت جيوشها إلى فيينا عاصمة النمسا، أما في مرحلة ضعف الدولة العثمانية أصبحت تعني كيف تقسم الدول الأوروبية الطامعة بالدولة الضعيفة بينها أملاك الدولة العثمانية في وقت أصبحت فيه الدولة العثمانية عاجزة عن الدفاع عن أراضيها. انظر: باترك كيزوس، مرجع سبق ذكره، ص٥٤٩ وما بعدها.

(٦٦) منطقة قديمة امتدت على وسط السواحل التركية (الأناضول) الغربي، وهذه الجزرة تشكلت من مهاجرين من اليونان، كانت تضم ١٢ مدينة كبيرة:وصفرة، لمزيد من التفصيل انظر: (موستراس،س، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ص ٥٤، ٥٥).

(٦٧) للمزيد من هذه الاتفاقية انظر: منصور بن معاضه الكريمي، الحروب والمعاهدات العثمانية الروسية ١١٢١-١٢٢٠هـ/١٧٠٩-١٨٠٥م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٦٨) ناهد دسوقي: بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية، ص ص ٢٦٠/٢٦١.

وبدأت كل من بريطانيا وروسيا تشعران أنهما خرجا من هذه المشكلة دون تحقيق مكاسب كبيرة على الأرض، بالرغم من أن روسيا قد اطمأنت لتراجع الخطر الفرنسي عن مياهها الإقليمية في البحر الأسود.

شعرت فرنسا بعد فشلها في تحقيق أهدافها بالمشرق بأنها في عزلة سياسية، وأنه يتعين عليها كسر هذه العزلة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أدركت أن خصومتها مع الدولة العثمانية سيفقدها الكثير من الامتيازات التي كانت تتمتع بها في أملاك الدولة العثمانية، لذا أبدت رغبتها الشديدة في استعادة العلاقات المتميزة مع العثمانيين، وفي المقابل لدى العثمانيين الرغبة في عودة العلاقات أيضاً خاصة وأن الدولة العثمانية اعتمدت في برنامجها الإصلاحي على الخبرة الفرنسية، إضافة إلى تخفيف الضغط الروسي البريطاني عليها، وأن إعادة العلاقات مع فرنسا سيعطيها هامش من المناورة السياسية، لذا لم يمض وقت طويل على اتفاق الجلاء السابق حتى شرع نابليون في مفاوضات حول إعادة العلاقات مع العثمانيين.

ثالثاً: مرحلة عودة العلاقات العثمانية – الفرنسية

في الوقت الذي كانت فيه كل من بريطانيا وروسيا تنتظران قطف ثمار وقوفهما مع الدولة العثمانية ضد الفرنسيين، رأى السلطان العثماني سليم الثالث الاستجابة للغزل الفرنسي لعودة العلاقات إلى سابق عهدها،وبعد الجلاء عن مصر أصبحت الفرصة مواتية لكلا الطرفين لإصلاح وترميم العلاقات بينهما.

لذا فبعد وقت قصير من اتفاق الجلاء السابق ذكره شرع نابليون في مفاوضات حول إعادة العلاقات، حيث تمت دعوة السفير العثماني إلى وزارة الخارجية الفرنسية، وطلب منه مخاطبة السلطان لتجديد العلاقة والصداقة بين البلدين، وبعد مفاوضات لم تطل أبرم اتفاق بين الطرفين أساسه عدم الإضرار بممتلكات الدولة العثمانية، والاستمرار في منح فرنسا الامتيازات القديمة في الولايات الشرقية للدولة العثمانية وكان ذلك في عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م، ويندرج تحت هذا الأساس أربع مواد جاءت كما يلي:

البند الأول: يحل السلام بين الدولتين فيزول بناء على ذلك ما كان بينهما من العدوان ابتداء من اليوم الذي يتم فيه التصديق على هذه البنود الابتدائية، وبعد أن تجري مبادلة التصديق يتم إجلاء ما تبقى من الجيش الفرنسي عن مصر وتعود المذكور إلى الباب العالي كما كانت قبل النزاع الحالي، ويتساوى الفرنسيون مع غيرهم من الجاليات الأجنبية في الامتيازات على الأرض المصرية.

البند الثاني: تعترف جمهورية فرنسا بتشكيل جمهورية السبع جزائر وبلاد البندقية السابقة وتكفل استمراره ويقبل الباب العالي كفالة فرنسا وإيطاليا بذلك.

البند الثالث: اتفقت جمهورية فرنسا والباب العالي على تعيين طريقة نهائية تختص بأموال رعاياهما التي حجزت أو أخذت مصادرة أثناء الحرب ويطلق سلاح الوكلاء السياسيين والوكلاء التجاريين والأسرى على اختلاف درجاتهم حال المصادقة على هذه البنود.

البند الرابع: أن المعاهدات السابقة فيما بين فرنسا والباب العالي والتي أبرمت قبل الحرب تجدد بتمامها وبناء على ذلك لجمهورية فرنسا الحق في أن تتمتع في كافة أنحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت متمتعة بها من قبل (٦٩).

الجدير بالذكر أن هذا الاتفاق المشار إليه يتعلق أساساً بتداعيات الغزو الفرنسي لمصر وجلائها، كما أنه عبر عن حسن نوايا بين البلدين بالاستمرار في المعاهدات السابقة، ولكنه لم يرس اتفاقاً جديداً يبني على المعاهدات والاتفاقات السابقة.

لذا وعندما سمعت الدولة العثمانية بعقد اتفاق أميان Amiens(٧٠) بين فرنسا وبريطانيا وأسبانيا وهولندا في عام ١٢١٧هـ/٢٥ مارس ١٨٠٢م ورتبت هذه الدول فيه أوضاع القارة الأوروبية في تجاهل تام للدولة

---

(٦٩) محمد زيد بك: المحامي، مصدر سبق ذكره، ص١٨٥، الجارالله، مرجع سبق ذكره، ص١٨٨-١٨٩.

(٧٠) أميان بلدة فرنسية تبعد عن باريس قرابة ١٣٣كم.

العثمانية(٧١)، خشي السلطان العثماني أن يكون هذا الاتفاق على حساب الدولة العثمانية، فرأى أن يمضي بتوثيق علاقاته مع فرنسا ومنحها امتيازات وتفضيلها على الدول الأوروبية الأخرى التي وقعت على هذا الاتفاق، لعله بذلك يكسر هذا الاتفاق بحيث لا يكون على حساب الدولة العثمانية.

لذا بادر السلطان سليم الثالث بإرسال خطاب إلى نابليون ذكر فيه تاريخ العلاقات بين البلدين وضرورة التعاون بينهما في سبيل الإصلاح ورغبته في الدعم الفرنسي دون غيره بالمساعدات العسكرية الفنية التي ستعود بالخير والسعادة على بلاده(٧٢)، وذلك إشارة من السلطان بتفضيله فرنسا على غيرها في عملية الإصلاح في بلاده، لكي تكون بريطانيا وروسيا على علم بأنه لا مجال للمزايدات أو محاولة إفساد العلاقة المرتقبة بين البلدين.

وإظهاراً لحسن النية بدأت الدولتان في تبادل التمثيل الدبلوماسي، حيث تم تعيين السيد محمد سعيد غالب أفندي ممثلاً رسمياً للدولة العثمانية في فرنسا، وقامت فرنسا بتعيين مسيو شارل مورس Charl moris ممثلاً فرنسياً في الدولة العثمانية، وقد رحب نابليون بتعيين السيد محمد غالب سفيراً للدولة العثمانية، وفي رسالة أرسلها نابليون إلى السلطان أشار فيها إلى أن السلطان أحسن الاختيار واعتبر السيد محمد غالب أفندي أنسب مبعوث لهذه المهمة، وأنه عندما وصل إلى باريس تم استقباله وإكرامه فهو ممثل سلطان الدولة العلية العظيم(٧٣). وكانت المهمة الأولى أمام كل من المبعوثين العثماني والفرنسي، هي وضع الأساس للاتفاق النهائي بين كل من الدولة العثمانية وفرنسا، بعد الاتفاق الابتدائي الذي تمت الإشارة إليه وذلك عام ١٢١٦هـ/١٨٠١م.

---

(٧١) محمد فريك بك: المحامي، مصدر سبق ذكره، ص١٨٦، الهاشمي: مرجع سبق ذكره، ص٤١٦.

(٧٢) الأرشيف العثماني رسالة من السلطان سليم الثالث إلى نابليون بونابرت

B.O.A. Al, DVNS. NMH, D0009.

(٧٣) الأرشيف العثماني،رسالة مرسلة من نابليون إلى السلطان سليم الثالث، الأرشيف العثماني.

B.O.A. Al, DVNS. NMH, D0009.

وبعد مفاوضات بين الطرفين تم إبرام اتفاق نهائي يشتمل على عشر مواد وذلك في ٢٣ صفر ١٢١٧هـ/ يونية ١٨٠٢م ومن أهم مواد هذا الاتفاق ما يلي:

المادة الأولى: أن يسود السلام بين جمهورية فرنسا والدولة العثمانية بعد هذا الاتفاق وحل جميع المشكلات وإنهاء العداوات.

المادة الثانية: التأكيد على الروابط والعلاقات الخارجية التي كانت بين البلدين وتجديد شروطها وفق المعاهدات القديمة، وبموجب هذا التجديد سوف يتم مراعاة مصالح الدولة العثمانية وكذلك حماية السفن الفرنسية التجارية وتسهيل كافة الأمور لدخول وخروج هذه السفن من موانئ الجانبين وضرورة اتخاذ التدابير والإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا الاتفاق بشكل عاجل.

المادة الثالثة: تعيين مراقبين ومسئولين فرنسيين للإشراف على الشئون التجارية لفرنسا في أملاك الدولة العثمانية.

كما جاء في المادة الخامسة: المحافظة على أراضي الدولة العثمانية وفرنسا بوضعها الراهن.

وأكدت المادة السابعة على: العمل بالمعاهدات القديمة بالنسبة لرسوم الجمارك بين الطرفين وفض المنازعات التي تظهر على هذا الأساس. وإخلاء سبيل الأسرى وإطلاق سراحهم.

كما يؤكد هذا الاتفاق على إقرار بجميع المصالح بين الدولتين بموجب المعاهدات السابقة وعدم تغييرها(٧٤).

وبموجب هذه المعاهدة تم تنظيم العلاقة بين الدولتين، كما تم بذل الجهود من كلا الطرفين لإقرار السلام والمودة وتم تعيين سفيراً للدولة العثمانية في فرنسا خلال الفترة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، للعمل على توثيق العلاقات والروابط الأخوية، والعمل على معالجة المشاكل المعلقة بين الطرفين، كما تم تعيين الجنرال برون Brune سفيراً في إسطنبول في نفس

(٧٤) الأرشيف العثماني B.O.A, Al. DVNS. NMH. d. 0009

العام ١٢١٧هـ/١٨٠٢م، وتذكر المصادر بأن برون كان على علاقة وطيدة مع السلطان سليم وهو الذي ساعده في اتباع منهج الحزم والقوة مع معارضيه من الأعيان، وأكد للسلطان استعداد فرنسا بالدعم اللامحدود ضد منافسيه في الداخل والخارج. وفي تقرير أرسله ستراتون Straton السفير البريطاني في إسطنبول إلى وزارة الخارجية في لندن ذكر فيه أن السلطان العثماني يتعامل مع برون معاملة خاصة به ولم يحظ غيره من السفراء بهذه المعاملة، كما أن السلطان سمح لبرون دون غيره لمقابلات الخاصة معه ومع كبار الشخصيات في الحكومة العثمانية(٧٥).

لقد أدت هذه المعاهدة تلقائياً إلى فسخ التحالف العثماني الروسي البريطاني، ويبدو أن ذلك أحد أهداف الساسة الفرنسيون بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر، ورغم مساعي نابليون لإزاحة روسيا إلا أنها احتفظت بنفوذ معتبر في الدولة العثمانية، حيث كان لها الحق في إقامة ثكنات عسكرية في الجزر الأيونية، أما بريطانيا فقد وعدت بإخلاء مالطه، وهو أمر كان يهم روسيا وفرنسا على حد سواء، لكنها لم تستعجل في سحب قواتها منها.

وعلى الرغم من أن فرنسا أولى الدول الأوروبية التي أقامت علاقات تعاون وصداقة مع الدولة العثمانية، وحصلت على امتيازات اقتصادية وتجارية ودينية، وذلك منذ القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، إلا أن هذه العلاقة تغيرت بعد الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، بينما خلال القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي جاء الموقف الفرنسي تجاه الدولة العثمانية مليء بالتناقضات، فتارة تراها تحاول تقسيم الدولة العثمانية من خلال حملتها على مصر، وتارة تراها تؤيد الانفصال عنها كما عملت مع محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨م)، وموقفها من الثورة اليونانية على العثمانيين، ومن جهة أخرى تراها تعارض بشدة تزايد النفوذ الروسي في الدولة

(٧٥) F.O.78/47/3, from the Britich Empassidor. Alexander straton to secrtary of state in London in 10 Marsh, 1803.

العثمانية، وفي الأخير انضمت إلى بريطانيا بضرورة المحافظة على أملاك الدولة العثمانية.

الخاتمة

لقد توصل البحث بعد إتمامه بحمد الله إلى النتائج التالية:

- أن الدولة العثمانية بلغت أوجه قوتها وتوسعها وخضعت لها الكثير من مناطق أوروبا، وآسيا وأفريقية، فصار لازماً عليها أن تنمي مواردها الاقتصادية والمالية، وتوفير المواد الضرورية التي تدخل في الصناعات العسكرية لتمويل جيوشها على الجبهات الواسعة وأمدادها بالعدد والمؤن، والتخلص من العجز المتصاعد الذي استنزفته الحروب، لذلك لجأت إلى عقد مثل تلك المعاهدات.
- تمكن العثمانيون من اختراق وحدة الصف الأوروبي على الجبهة الغربية والجنوبية للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وتمت المحافظة على المكتسبات العثمانية في وسط أوروبا، وكذلك الكيانات المسلمة في شمال أفريقية التابعة للسلطان العثماني، بينما تكبدت أسبانيا والبرتغال خسائر كبيرة حتى صارت تلك الخسائر عقبة في طريقهما لتحقيق أهدافهما في شمال أفريقية.
- أن ازدهار العلاقات العثمانية الفرنسية كرست الخلافات الدينية والسياسية بين الدول الأوروبية والمتمثلة بالكاثوليك والبرتستانت.
- أسهمت تلك العلاقات إلى حد بعيد في عدم فتح جبهات عديدة على العثمانيين مما قد يؤدي إلى تشتيت الجهود العسكرية العثمانية على تلك الجبهات.
- أن العلاقات العثمانية الفرنسية منحت فرنسا الأولوية بين الدول الأوروبية في ممارسة الضغط وقوة النفوذ على السلطان العثماني، وذلك مع ضعف الدولة العثمانية خلال القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.
- استغلت فرنسا تلك العلاقة مع العثمانيين لتوثيق علاقتها بنصارى الشرق وبخاصة في بلاد الشام (لبنان وفلسطين وسوريا) الذين

تربطهم علاقة وثيقة بفرنسا حتى وقتنا الحاضر، وكذلك على التأثير على طائفة الدروز في لبنان.

- ظلت العلاقات العثمانية الفرنسية في أحسن حالاتها حتى بعد الثورة الفرنسية، وكانت الدولة العثمانية من أوائل الدول التي اعترفت بالثوار، ولكن سرعان ما تبدل هذا الوضع وتراجعت العلاقات بعد الغزو الفرنسي لمصر. ولكنها عادت إلى سابق عهدها بعد جلاء الفرنسيين عن مصر.

- رغم عودة العلاقات إلى سابق عهدها إلا أن الغزو الفرنسي لمصر ترك أثر لدى العثمانيين من الصعب تجاهله، وهو عدم مراعاة فرنسا لعلاقاتها مع العثمانيين والمعاهدات المعقودة بينهما الأمر الذي جعل العثمانيين ينوعون هذه العلاقات ويبدأون بتوثيق علاقاتهم مع البريطانيين.

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق

١- الوثائق العثمانية

[١] وثيقة رقم ٦٧٦٧، محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ١٤٩/٢/١ رسالة من نابليون بونابرت إلى قائد الأسطول العثماني في الإسكندرية.
[٢] وثيقة رقم ٦٧٣٥، في ٢٩ محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ١٥٤/٤/١، رسالة من إبراهيم بيك إلى السلطان العثماني.
[٣] وثيقة رقم ٦٥٩١، محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ١١/٤/٥، مقاومة الأهالي للغزو الفرنسي في الإسكندرية ورشيد ودمنهور.
[٤] وثيقة رقم ٦٧٦٨ في ٢٠ محرم ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ١٤٩/٢/١، مراسلات نابليون التي بعث بها من الإسكندرية.
[٥] وثيقة رقم ٦٨٠٢، صفر ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ٤/٥/٥، رسالة من مصطفى باشا إلى السلطان العثماني.
[٦] وثيقة رقم ٧٦٩١ في ٢٥ شعبان ١٢١٣هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ٣٠٢/٢/١، رسالة من الصدر الأعظم إلى السلطان سليم الثالث.
[٧] وثيقة رقم ٥٧٥٢، عام ١٢١٦هـ، دارة الملك عبدالعزيز، مكتبة الوثائق التركية، تحت رقم ٦٠٠٩/١، رسالة من السفير العثماني في باريس إلى السلطان العثماني.
[٨] الأرشيف العثماني B.O.A, Al.DVNS. NMH. DOOO9
رسالة من نابليون إلى السلطان العثماني.
ورسالة من السلطان العثماني إلى نابليون.

٢- وثائق وزارة الخارجية البريطانية

[9] F.o, 78/10/ 13, Report sent from the british Embassedors liston to secrtary of state in london in 25 Nov.1794.
[10] F.o, 78/11/37, Report sent from the british Embassedors liston to secrtary of state in london in 3 July 1795.
[11] F.o, 78/11/37, Report sent from the british Embassedors liston to secrtary of state in london in 2 spt, 1795.
[12] F.o, 78/41/17, Report sent from the spencer smith to secrtary of state in london 2 Octoper, 1796.
[13] F.o. 78/47/3, Report sent from Alexander straton to secrtary of state in london, 10 March 1803.

ثانياً: المصادر والمراجع والأبحاث العربية والمعربة

[١٤] علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
[١٥] حسام الحفناوي، الحلف العثماني الفرنسي وظهور الامتيازات الأوروبية في المنطقة، القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
[١٦] يلمازا أوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، ج١، اسطنبول، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
[١٧] محمد فريد بيك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
[١٨] تركية بنت حمد الجار الله، العلاقات الخارجية للدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثالث، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
[١٩] إبراهيم بيك حليم، تاريخ الدولة العثمانية (التحفة الحليمة) بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
[٢٠] عبدالقادر أوغلو، السلاطين العثمانيون، ترجمة محمد جان، الدار العثماني للنشر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
[٢١] ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
[٢٢] حسين مؤنس، الشرق الإسلامي في العصر الحديث، ط٢، القاهرة، ١٣٥٨هـ/١٩٣٨م.

[٢٣] فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال البازجي، ط٢، بيروت، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
[٢٤] عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها،ط١، القاهرة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
[٢٥] أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط٣، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
[٢٦] ناهد إبراهيم دسوقي، بدايات الإصلاح في الدولة العثمانية وأثر الغرب الأوروبي فيها ١٧٨٩-١٨٠٧م، الإسكندرية ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.
[٢٧] السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني ١٥١٧-١٨٨٢م، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
[٢٨] موسى موسى نصير، مصر في نهاية حكم على بك الكبير إلى مجيء الحملة الفرنسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الإسكندرية، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

[٢٩] عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢م، بيروت، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
[٣٠] فيشر. هـ. أ. ل، تاريخ أوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩-١٩٥٠م، ترجمة أحمد نجيب هاشم، القاهرة ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
[٣١] جون باترك كيزوس، القرون العثمانية قيا وسقوط الإمبراطورية التركية، ترجمة ناهد إبراهيم دسوقي، الإسكندرية، (د.ت.)
[٣٢] عبدالمنعم الهاشمي، الخلافة العثمانية، ط١، بيروت، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
[٣٣] محمد أسد الله صفا، نابليون بونابرت، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
[٣٤] منصور بن معاضه الكريمي، الحروب والمعاهدات العثمانية الروسية ١١٢١-١٢٢٠هـ/١٧٠٩-١٨٠٥م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

[٣٥] مجلة المقتطف، الامتيازات الأجنبية في الممالك العثمانية، المجلد الخامس والأربعون، جـ١، نوفمبر ١٩١٤م.

ثالثاً: المصادر والمراجع والأبحاث الأجنبية

[36] L AVISSE,E.,Histoire, de la frence depuis ees orgines jusgua la revolution, tome. 5, paris, 1903, p.9
[37] BRUNEAU, A., Tradition et Politigue de la France au lavant, Paris, 1932, p.23-24.
[38] Munir Salih, Louis XVI et Lesulton selim III "revwe d' Historie Diplomatique XXVI, 1912, P.516.
[39] Dekoch, M., Hitoire Abregee des traites de paix entre les puissances de I Europe, depuis la paix de west phalie, paris, 1817,p. 241.
[40] Halil, I., An Economic and Social Hostiory of the ottoman Empire, vol,I cambrifge,1994.
[41] Lyantey, p.le Drame orientale le France, Paris, 1923,p.88.
[42] Vertray, M., Journal dun offcierde I armed Egypte, I armee Francaise en Egypte (1798-1801) Paris 1883, p.196-197;

[43] shaw S. History of the ottoman Empire and Modern Turky: vol. 1, (Empire of the Giza the rise decline of the ottoman empire 1280-1800, cambridge University, 1976,p.13.
[44] Testa, L.B., Recueil des traites de la porte ottomane avee les puissances etrangeres etrangeres, paris, 1867,pp. 16-18.
[45] Tongas, G. les relations de la france avec lempire ottoman durant la premere moitie du xv111 siesle, toulouse, 1942, p.40-43.
[46] URSU, J., La Politigue Orientale de Francois ler (1515-1547). Imprimerie F Paillart, Paris, 1908. P-51.
[47] De marciree, E., Une ambassada a Constatntinople, Paris, 1927; P.354.

French stages of the Ottoman Relations 948 - 1217 AH / 1535- 1802 AD

Dr. Abdulrahman bin Ali Al-Sudais
Department of History, Faculty of Arabic Language and Social Studies
Qussaim University

Abstract. Varied Ottoman-French relations between friendliness and convergence sometimes and other times contradiction and tension since the signing of the treaty between the privileges of the Ottoman Sultan Suleiman the Magnificent (926-974h / 1520-1566m) and the King of France Francois I Franois.I (900-953h / 1494-1547m) and this year 948 AH / 1535 as the first treaty between the Ottoman Empire large European and state grants through which the Ottoman Sultan certain guarantees and facilities to France, and it was the circumstances surrounding the impact of the tide and fleecing which happened in the relations between the Ottomans and the French parties, in particular has been renewed between the two parties more than once. And this research will address relations between the two sides across the three axes: First: the growth stage in the relations. Second phase of tension. Third stage of the resumption of relations